احمد بهاء الدين

تعليق على بحث دور الاستعمار في التخلف للدكتور عطيوي

ان البحث الذي قدمه الدكتور عبد الجبار عطيوي عن دور الاستعمار في التخلف الحضاري الذي تعاني منه الامة العربية ، بحث كامل وموجز ومحكم ، ولا اظن ان هناك مجالا لاي اضافة هامة ، الا اذا شئنا ان ندخل في ذكر تفاصيل اعتقد اننا نعرفها جميعا عن آثار الاستعمار في شتى مجالات حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

علما انه قد يمكن اضافة بعض النقاط التي ترتبط بما نراه من زوال الاستعمار بوجه عام من جهة ، او بما نتوقعه من استمرار علاقة القوي بالضعيف في تشكيل النمو الحضاري من جهة اخرى .

فنحن حين ننظر الى الكتابات العربية خلال عشرات السنين الماضية بوجه عام ، نجد انها لم تقصر في ذكر متاعب الاستعمار ، في الدور الذي قام به عبر اشكاله المختلفة . ولكنني اخشى دائما من ان الانصراف الى تحليل هذه الاسباب الخارجية كان كبيرا لدرجة ربما ادت الى تقصير الفكر العربي في النظر الى الداخل او في تحليل اسباب التخلف الخاصة بنا ، والتي سهلت للاستعمار دوره . ومن علامات النضج اننا نرى تحولا في هذا المجال ، واننا بدانا نحلل اوضاعنا المتعلقة بنا ، وهذه الندوة دليل على ذلك .

لقد كان سهلا على كثيرين من المفكرين العرب في مرحلة معينة ، ان يسقطوا كل اسباب الازمة العربية على العالم الخارجي . ربما لان هذا كان يريحهم من عناء المواجهة الحقيقية للاسباب الكامنة في مجتمعنا العربي ذاته ، ولانه ايضا لا يضعهم في موضع التصادم الحاد مع كثير من القيم والمعتقدات والرواسب السائدة في مجتمعاتنا . كذلك كان هذا التركيز على الخارج ، في ظروف كثيرة ، مريحا للسلطة في معظم البلاد العربية ، لانه يخفف من مسؤولياتها التي عليها ان تتحملها او يبرر للناس عجزها وجمودها .

لقد تفكك المجتمع العربي وبدات سلسلة اضمحلاله من داخله قبل ان تهجم عليه الغزوات المختلفة التي اكملت اخضاعه ، وان دراسة اسباب انحلال الحضارات المزدهرة لهي دراسة مثيرة وهامة وصعبة لتلك المظاهر التي تستعصي احيانا على الفهم . ولا اظن ان القول بان تمزق الدولة الاسلامية الى دويلات متصارعة يكفي لحل المشكلة . ان هذا طبعا صحيح ولكنه مظهر من مظاهر الاضمحلال . ولكن قيم الحرية والعدل والبحث كانت قد انزوت لتحل محلها قيم الاستبداد والطغيان واغتلاق ابواب الاجتهاد . وتكوين التفسير الديني لرغبات الحكام كان قد صار ظاهرة عامة ، وحدث هذا قبل غزو الاستعمار لنا ماديا بوقت طويل .

اقول هذا لانني اعتقد ان من المفاتيح التي لا بد منها من اجل التقدم العربي ان نعيد دراسة وكتابة التاريخ العربي والاسلامي ، دراسة نقدية حديثة . ولا اقصد بهذا مجرد ذلك العدد من المؤلفات العلمية لبعض اساتذتنا . ولكنني اقصد ان هذا التاريخ الذي يبلغ اكثر من ١٤٠٠ سنة ، يكاد يكون كله في الذهن العربي العام تاريخا مقدسا ، لا يعرف الناس منه الا صفحاته المضيئة ، ولا يدركون بالتالي الامراض التي دبت فيه وادت الى اضمحلاله . واظن ان التدريس العام في مدارسنا ينهج المنهج نفسه .

ان الاستعمار او رغبة دولة ما في السيطرة على غيرها باي صورة قديم قدم التاريخ . ولكن الغزو لا ينجح الا ضد مجتمع ضعيف بالفعل، او اقل على اي حال .

فالعرب لم يكونوا في احسن حال حين داهمتهم الغزوات ، بل العكس . فلماذا وما الذي جرى ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة مهم وضروري في هذه المرحلة ، لانه لا يمكن المضي في طريق التحضر دون الانطلاق من فهم هذه الخلفية ودون ان يتقبل مجتمعنا هذا .

وهذا مهم ايضا ونحن نتحدث في مواجهة العصر الحديث عن الاصالة وعن التراث ، وفي اعتقادي ان من اهم اسباب تخلفنا اننا حتى الان لم نحل تلك المعادلة بين الاصالة والتجديد رغم ان البحث بدا فيها على ايدي مفكرينا منذ قرن على الاقل .وتلك قضية لا شك ستناقش في مواضع اخرى من هذه الندوة . ولكن تراثنا فيه تراث مراحل النهضة والتنوير وفيه تراث مراحل الاضمحلال .وهذا لا بد من فرزه، وهو ما لا يحدث ، انما نرى ان كل كتاب عمره كذا مئة سنة ينشر ويوزع لانه تراث ، بصرف النظر عن البيئة والظروف التي انتجته .

والاستعمار نفسه في العصر الحديث صحيح انه جاء ممتطيا قوته الغاشمة وتفوقه العسكري والمادي والفكري ، ولكنه استخدم في حكم بلادنا كل عوامل التخلف الى اقصى الحدود . ولست اقصد هنا فقط

تلك العوامل المعروفة من الامية والفقر وغيرها ، ولكن ايضا كل النزعات القبائلية والعشائرية الراسخة ، والخلافات المذهبية الموروثة ، بل كان يذكي هذه الخلافات ، التي هي في النهاية معارك فات اوانها وانقضت بواعثها منذ قرون ، بدليل انه حتى بعد رحيل الاستعمار ما زالتهذه النزعات تلعب دورها في حياة كثير من المجتمعات العربيـة بدرجات مختلفة .

النقطة الثانية التي اود الاشارة اليها هي انـه يجب ان نخص الظاهرة الاسرائيلية الاستعمارية بآثار خاصة بها تميزها عن الـدور الذي لعبه الاستعمار في اشكاله السابقة ...

لقد عرف العرب منذ تفتحت جفونهم ببطء على حقائق العـالم الجديد ، قبل قرنين من الزمان ، عدة صعوبات . وعرفوا صدمـة الحملة الفرنسية على مصر التي حملت لهم اول صورة مـن العالم الحديث ، ومبادىء الحضارة الغربية ، ولكنها حملت معها اول تحريض للقوى الوطنية المصرية ، وبالتالي العربية ضد حكم المماليكوالاتراك.

وعرفوا صدمة تحالف دول اوروبا ضد محمد علي ، حين حاول من القاعدة التي انشاها في مصر تحدي الامبراطوريـة التركيـة من الداخل ، وفصل جزء كبير من المنطقة العربية عنها . حتى فرنسا التي شجعته وسايرته طويلا ، انضمت في الساعة الحاسمة الى انجلترا وروسيا وغيرها الى جانب الخلافة التركية المتداعية ...

وعرفوا صدمة الاحتلال الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢ الذي لم يتأخر كثيرا عن فتح قناة السويس والذي جاء في لحظة وصلت فيها الوطنية المصرية الى قمة احدى محاولاتها لطرد الحكم التركي والحصول على حقوق دستورية بالمعنى الحديث للشعب المصري ، وكان الهدف تصفية اخر آثار اول محاولة لاقامة دولة حديثة في الشرق . اذ كان على رأس برنامج الاحتلال القضاء على الجيش المصري ، وعلى مصانع الاسلحـة والاجهاز على كل المصنوعات المصرية التي كانت تعد شيئا بمستوى ذلك الوقت ، وانهاء كل النضال الدستوري الشعبي الذي كان متقدما على بلاد اوروبية كثيرة في ذلك الوقت .

وعرفوا صدمة الحرب العالمية الاولى ، التي وعدهم الغرب فـي بدايتهـا بالاستقلال وباعوهم فـي نهايتها لانجلترا وفرنسا وللحركـة الصهيونية العالمية ، وعرف سائر المشرق وقتها ما عرفه المصريون مـن قبل من انهم امام استعمار اكثر عصرية ، ينتقد حجة الاستعمار التركي الشرعية في الخلافة ، ولكنه اكثر كفاءة واكثر عملا بالتالي بادخـال اصلاحات تجعل ادارته لمستعمراته اكثر فاعلية .

لذلك كان رد الفعل العربي بوجه عام ازاء الاحتـلال الاوروبـي مزدوجا ، فهم يناضلون ضده للحصول على الاستقلال ، ولكنهم كانوا في نفس الوقت يقلدون عادات هؤلاء الاوربيين في بلادهم ويحاولون اقتباسها ، ويصارعون مستعمريهم بحجج مستمدة من نظمهم وقيمهم التي يمارسونها في بلادهم .

اما صدمة اسرائيل فهي من نوع اخر ، لست محتاجا الى شرحه، فهي تقوم علىتشريدشعب من الشعوب العربية واخلاءارضهوالاستيطان الدائم وخلق قومية جديدة مكانهم .

ويهمني هنا من هذه القضية ان اسرائيل جاءت في مرحلة زادت من تشتت العرب الفكري . فهي بكيانها الغريب المعقد الذي يحمـل ظلالا شتى تبدأ من الاسطورة الدينية الى استخدام اعقد وسائـل العلم الحديث ادت الى ردود فعل متضاربة في العقل العربي العام .

فالذين رأوا من اسرائيل جانبها القائم على الاسطورة الدينية ، وجدوا ان الدفاع ضدها يكون في الرجوع الى الماضي واعتبروا ان تسلل الافكار الجديدة الى المجتمع كان سبب الهزائم .

والذين رأوا في اسرائيل نظامها القائم على الحريات الليبرالية وتعدد الاحزاب قالوا : ان الحل في الاخذ بالليبرالية الاوروبية .

والذين رأوا ان الاساس في الظاهرة الاسرائيلية هو ارتبـاطها العضوي بالاستعمار العالمي ، قرروا ان الحل هو الثـورة الاجتمـاعية الشاملة ، بل والثورة العالمية .

وليس معنى ذلك ان اسرائيل ـ كظاهرة استعمارية ـ خلقت هذه التيارات المصارعة ، فهذه اعتبارات كانت طبعا موجودة من قبل. ولكنها جاءت لتدعم الرأي المسبق ، او تزيده تطرفا فيه ، وانحصارا فـي داخله .

وقد جاء هذا في مرحلة من نمو العالم العربي ، تنفتح فيه الابواب امام كل الاعتبارات الفكرية والنماذج الحضارية بشتى انواعها دون ان يوجه حتى الان درجة كافية من التماسك الاجتماعي والفكري الحضاري العميق ، ليس حول فكرة واحدة او نموذج واحد ، ولكن حول عـدد معقول من القيم الحديثة المسلم بها لدى عدد من ابناء الامة ، الامر الذي يعتبر شرطا ضروريا لكي يكون لها نسيج قوي قادر على مواجهـة التعبير والانطلاق دون اضطراب شامل او نكسات عنيفة .

النقطة الثالثة والاخيرة هي في الواقع طرح قضية وليست الاجابة عنها . قضية الاستعمار بعد ان رحل ..

فبعد زوال سيادة الاستعمار عسكريا وحتى اقتصاديا ، تبقى من بعد هذه القرون جذور فكرية واجتماعية . جذور في انمـاط السلوك واساليب العمل .تبقى له الثقافة التي صنعها خلال استئثاره بالعلم والفكر في حياة العالم ...

فالدول التي حكمت العالم خلال القرنين الاخيرين ، انتجت فلسفة او فلسفات معينة . واعادت كتابة تاريخ العالم من وجهات نظر معينة واوجدت معاني معينة للكلمات : ما هو النجاح ؟ ما هي القضيه ؟ مـا هو اليمين واليسار ؟ ما هي الثقافة ؟ ما هي غاية المجتمع ؟ مـاذا يريد الانسان ؟ بل ما هو مضمون التقدم والتخلف ؟

وكل البلاد الخارجة عن الاستعمار ، والتي تواجه ازمـة التطور الحضاري ، يصعب عليها التخلص من امرين :

الاول هو التأثر من هذه العناصر الموجودة بالفعل ، بقوة تاثيرها الطاغية التي تجعلها نموذجا متقدما ، والثاني ان العالم فوق ذلك في مرحلة حركة لا استقرار ، وان ما استقر طويلا في المجتمعات المتقدمـة التي تستعمرنا ، تتعرض اليوم لهزات عميقة .

وانا هنا لا ادعو الى رفض ما وصلت اليه تلك الدول ، او الى قبوله ، او الى انتقاء معين منه . فيخيل لي وانا اكتب هذه السطور ان هذا قد يكون له مجالات اخرى في ابحاث الندوة ولكن فقط الفت النظر ، والموضوع هو دور الاستعمار في ازمة التخلف الحضاري ، الى هذا الدور الذي يظل مستمرا بالطبيعة بعد زوال العلاقة الاستعمارية في صورتها التقليدية سياسيا او اقتصاديا .

كيف نستطيع ان ننظر الى هذا ايضا نظرة نقدية ، متخلصة مـن بصمات الاستعمار العميقة وغير منفصلة في نفس الوقت عن التجربـة الانسانية الشاملة ؟

انني من المؤمنين بفكرة وحدة الحضارة ، من خلال التنوع الـذي تفرضه الطبيعة والذي ساهم ويساهم في اثراء هذه الحضارة فـي معانيها العامة المتقاربة . واذا كانت هناك حضارة حديثة فنحن العرب شركاء فيها لاننا حملنا مشاعلها يوما واقمنا بعض اسسها .

ووسائل الاتصال الحديثة تضاعف من تعميم قيم حضارية معينة في شتى انحاء العالم . ولكن المشكلة ان هذا يتم بسرعة شديدة في وقت نحن فيه الضعفاء وغيرنا هو الاقدر على التأثير والعطاء . الامر الـذي يهدد بتحقيق كلمة ابن خلدون من « ان المغلوب مولع ابدا بتقليـد الغالب » او بحديث الفيلسوف الالماني شبنجلر عن ظاهرة « التشكـل الكاذب » التي تقع فيها المجتمعات النامية حين تبدأ من قوالب موجودة من قبل ، قبل ان تتجاوزها الى اخذ اشكالها الحقيقية .

ولا شك ان هذه الندوة عن ازمة التطور الحضاري سوف تدقـق النظر حول هذه القضايـا تحت العناوين الاخرى لسائر موضوعـات الندوة .